الفصل الثانى
حياة ابن حزم

١ - أسرته:

تدل روايات المؤرخين عن أسرة ابن حزم على مكانة مرموقة، وعراقة فى النسب، فقد قال الفتح بن خاقان: «بنو حزم فتية علم وأدب، ونبيه مجد وحسب، ولى الوزارة منهم غير واحد، ونالوا بقرطبة جاها عريضا..»[١].

وكان والده أحمد بن سعيد من عقلاء الرجال الذين نالوا حظا وافرا من الثقافة والعلم، ولذلك كان يعجب ممن يلحن فى الكلام، ويقول: «إنى لأعجب ممن يلحن فى مخاطبة، أو يجىء بلفظة قلقة فى مكاتبة، لأنه ينبغى له إذا شك فى شىء أن يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا[٢]» ومن نصائحه التى أسداها لابنه - أبى محمد - وكان يرددها قوله:

إذا شئت أن تحيا غنيا فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها[٣]

فهو بحق - كما ذكر ابن بشكوال - «كان من أهل العلم والأدب والخبر، وكان له فى البلاغة يد قوية» ولا جرم أن هذه الخلال الكريمة التى أضفتها الأقدار على والد ابن حزم هى التى أهلته لمنصب الوزارة الذى اختاره له ابن أبى عامر الذى عرف بدقة حكمه، ونفوذ بصيرته فى الحكم على الرجال، وتمييز جواهرهم[٤].

توفى أبوه كما يروى المقرى عن ابن حيان بذى القعدة سنة اثنتين وأربعمائة بعد أن ساءت حالته وتتابعت عليه المحن والنكبات والتغريم فى آخر حياته، ولا يبعد أن يكون مات قهرا بعد ذلك العز الشامخ[٥].

(١) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس، وانظر أيضا نفح الطيب ١/ ٢٩٠.
(٢) الحميدى: جذوة المقتبس ص ١٢٦ (الدار القومية سنة ١٩٦٦).
(٣) المرجع السابق ص ١٢٦.
(٤) انظر الحاجرى: ابن حزم ص ٣٢.
(٥) سعيد الأفغانى: ابن حزم ص ٢١ - ٢٢.

وكان لابـن حزم أخ أكبر منه سـنا، يُكْنَى بأبى بكر، تـزوج بعاتكة بنت قند، صاحـب الثغر الأعلى أيام المنصور بن أبى عامر، ويصف ابن حزم زوجة أخيه هذه فيقـول.. «وكانت لا مرمى وراءها فى جمالها، وكريم خلالها، ولا تأتى الدنيا بمثل فضائلها»[1].

ويبـدو أن ابـن حزم لـم يكن له من الأخـوة غير أبى بكر هذا، لأنـه ألف كتابا - مفقـودا - عنوانه: «تواريـخ أعمامه وأبيه وأخيه» فقد نص علـى أخيه بالإفراد وليـس بالجمع[2] وكان من النابهين فى هذه الأسـرة - أيضا - فى ذلك الوقت أحمد ابن عبد الرحمن بن سـعيد بن حزم والد أبـى المغيرة عبد الوهاب بن حزم، ويصفه صاحب «المطمح» فى سياق الكلام عن ابنه المغيرة بأنه فقيه علم وأدب، ونبيه مجد وحسب»[3] وأصل أسرة ابن حزم - قبل أن تهاجر إلى قرطبة - من قرية «منت ليشم» وتسمى الآن منتيخر أو بدون الراء.

وهـى قرية تقع فى مقاطعة «ولبة» جنوب غرب الأندلس، وقد ذكر ياقوت: أنها كانت ملكه وملك سلفه من قبله[4].

٢ - مولده:

ولـد الإمام أبو محمد على بن حزم فى الجانب الشـرقى مـن قرطبة فى آخر يوم من أيام رمضان سـنة أربع وثمانين وثلاثمائة وكانت ولادته فى ذلك اليوم قبل طلوع الشـمس وبعد سـلام الإمام من صلاة الصبح[5] وهذا التاريخ يوافق اليوم السـابع من نوفمبر سنة ٩٩٤ من السنة الميلادية[6]. وقد ولد فى بيت والده الوزير بقرطبة وكان قد مضى على الوالد ثلاث سنوات فى وزارة الحاجب المنصور.

(١) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٥٤.

(٢) عبد الحليم عويس: ابن حزم ص ٤١، وراجع: (مبحث تراث ابن حزم المفقود).

(٣) عبد الكريم خليفة: ابن حزم ٢٦.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٤٠.

(٥) وفيـات الأعيـان ١٣/٣ ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٣٧ والصلة لابن بشـكوال ٢/ ٤١٠ والنفح للمقرى ١/ ٣٥٩.

(٦) دائرة المعارف الإسلامية (مادة ابن حزم) ١/ ٢٥٤. ط دار الشعب.

وقد كتب صاحبنا «أبو محمد» هذا التاريخ إلى القاضى صاعد بن أحمد الأندلسى بخط يده، وهو لا شكَ بهذا التعيين الدقيق - يدل على مكانة تلك الأسرة ومدى ما كانت عليه من تحضر ورقى، جعلها تهتم بأخبار مواليدها هذه العناية البالغة.

٣ - نسبه:

اسمه على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموى. وجده يزيد أول من أسلم من أجداده، وأصله من فارس، وجده خلف[1] أول من دخل الأندلس من آبائه[2].

أما كنيته التى وردت فى كتابه «الفصل» وغيره من كتبه وعرف بها فهى «أبو محمد» وشهرته «ابن حزم».

وهذا النسب الذى ذكره ابن خلكان وغيره من المؤرخين كالمقرى والذهبى والحميدى وابن العماد يدل على أنه ينتمى لأسرة فارسية؛ إذ إن جده الأقصى فى الإسلام - وهو يزيد - كان مولى ليزيد بن أبى سفيان أخى معاوية الذى أسلم عام الفتح وولاه أبو بكر إمرة الجيش الأول الذى ذهب لفتح الشام[3].

٤ - نشأته:

نشأ ابن حزم نشأة مترفة تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والترف، وذلك شأن أبناء الوزراء والأمراء الذين يجدون كل وسائل المتع والبذخ ميسرة لهم، فلا ضيق فى رزق، ولا حاجة إلى مال.. وقد تلمس شيئا من هذا النعيم الذى كان يتقلب فى أعطافه ابن حزم من خلال كتابه «طوق الحمامة» الذى يحدثنا فيه عن سعة داره

(١) هو خلف بن معدان، جاء إلى الأندلس فى جيش الفاتح مع موسى بن نصير سنة ٩٣ هـ وقيل قدم إليها فى معية عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) سنة ١٣٨ هـ (انظر ابن حزم مؤرخا ٣٦).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٣.

(٣) انظر أبا زهرة: ابن حزم ٢٣ وعبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسى مؤرخا ٣٦.

ومـا وعت من خدم وجوارى، فيقول فى معرض حديثه عن جارية عرفها فى صباه: «فلعهـدى بمصطنع كان فى دارنـا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤسـاء، تجمعت فيـه دخلتنا، ودخلة أخى رحمه الله، من النسـاء ونسـاء فتياتنـا ومن لاث بنا من خدمنـا، ممن يخف موضعه، ويلطف محلـه، فلبثن صدرا من النهار، ثم تنقلن إلى قصبةٍ كانت فى دارنا، مشـرفة على بسـتان الدار، ويطلع منهـا على جميع قرطبة وفحوصها[1]، مفتحة الأبواب، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب وأنا بينهن، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه، أنسـا بقربها، متعرضا للقرب منها فمـا هو إلا أن ترانى فى جوارها فتتـرك ذلك الباب، وتقصد غيره فى لطف حركة، فأتعمـد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلـى غيره، وكانت قد علمـت كلفى بها[2]...إلخ». وكانت نعمة والد ابن حزم – على ما يظهر– فاشـية، وغناه مسـتفيضا فكانت له دور محدثة ودور قديمة: «ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشـرقى من قرطبة، فى ربض الزاهرة، إلـى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة، وانتقلت أنا بانتقاله، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة[3].

ولعل إجمـاع المؤرخين على أن القرية التى مات فيهـا وكانت ملكه وملك آبائه من قبله ما يدلنا على أنه كان فى رغد من العيش، وسعة فى الرزق حتى لقى ربه.

ويطيـب لنا أن نترك «صاحبنا» يحدثنا عن حياته المترفة، واصفا إحدى نزهاته مـع جماعـة من أصدقائه فيقـول: «تنزهت أنا وجماعة من إخوانـى من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجلسنا ساعة، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى فتمددنا فى رياض أريضة، وأرض عريضة، للبصر فيها منفسح وللنفس

(١) الفحوص: الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة.

(٢) طوق الحمامة: ص ١٤٥ تحقيق الدكتور الطاهر أحمد مكى.

(٣) المرجع السابق: ١٤٦ – ١٤٧.

لديها مسرح، بين جداول تطرد كأباريق اللجين، وأطيار تغرد بألحان تزرى بما أبدعه معبد[1] والغريض، وثمار مهدلة قد ذللت للأيدى، ودنت للمتناول، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها، فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج، والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وأنهار متدفقة كبطون الحيات، لها خرير يقوم ويهدأ، ونواوير مونقة، مختلفة الألوان، تصفقها الرياح الطيبة النسيم، وهواء سجسج، وأخلاق جلاسى تفوق كل هذا، فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة، تارة يغطيها الغيم الرقيق، والمزن اللطيف، وتارة تتجلى، فهى كالعذراء الخفرة، والخريدة الخجلة، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها، حذر عين مراقبة، وكان بعضنا مطرقا كأنه يحادث أخرى..»[2].

بيد أن هذا النعيم الخلاب لم يدم لهذا الغلام، لقد قلب له الدهر ظهر المجن فكان البؤس وكانت المحن، إذ كان أبوه وزيرا، وقديما قال الحكماء «من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه على دمه[3]» خصوصا عندما تتبدل الأحوال بتغير الحكم وخروجه من سلطان إلى سلطان.. وابن حزم يقص علينا كيف تبدل الحال بعد الحال، وكيف ذاق كأس الحياة وآلامها، وهو فى ريعان شبابه فيقول: «شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا، إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله، ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة[4].

---

(١) معبد، أبو عياد معبد بن وهب، زنجى الأب، مولى لعبد الرحمن بن قطن فى المدينة المنورة، وعمل فى شبابه صيرفيا، ثم احترف الموسيقى فيما بعد، وأصبح مغنى الأمراء من بنى أمية فى المشرق، ويصفه إسحاق الموصلى بأنه «من أحسن الناس غناء، وأجودهم صنعة، وأحسنهم خلقا، وهو فحل المغنيين توفى عام ١٢٥ هـ».

الغريض: ويكنى أبا يزيد، أو أبا مروان، والغريض لقب معناه المغنى المجيد، وهو من أصل بربرى. (راجع هامش الطوق ص ١٣٣).

(٢) ابن حزم: طوق الحمامة ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) أبو زهرة: ابن حزم ص ٢٩.

(٤) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٤٧.

وقد أضيف إلى هذه النوازل المجتمعة أولى كوارث ابن حزم العائلية وهى وفاة أخيه أبى بكر الذى لم نعرف له أخا غيره، فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة[1]. ثم كانت النازلة العائلية الثانية - قاصمة الظهر - هى وفاة والده الوزير أحمد بن سعيد بتأثير النكبات التى حلت به وببيته، وذلك فى ذى القعدة سنة ٤٠٢ هـ - فاتصلت حال ابن حزم بعده بالنكبات، وخلال العام التالى (٤٠٣ هـ) حلت بابن حزم النازلة العائلية الثالثة، إذ ماتت جارية له يصفها بقوله: كانت فيما خلا اسمها «نعم» وكانت أمنية المتمنى، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقًا، وموافقة لى، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة، ففجعتنى بها الأقدار، واخترمتها الليالى ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار.

وسِنِّى حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هى دونى فى السن، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى، ولا تفتر لى دمعة على جمود عينى، وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف[2].

وقد استمرت الإحن والفتن، حتى اضطروا إلى الخروج من قرطبة إلى المرية، «ثم ضرب الدهر ضرباته، وأجلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر»[3].

تلك هى المرحلة الأولى من حياة ابن حزم، وهى مرحلة تمتد خمسة وعشرين عاما مختلفة الأطوار، ذاق فيها ابن حزم حلو الحياة ومرها، وبدأت صور حياته فى قصر أبيه تتلاشى أمام المحن المتتالية، ما كان منها بسبب السياسة وما كان منها

(١) ابن حزم: الطوق ص ١٥٤.
(٢) المرجع السابق: ص ١٢٤.
(٣) المرجع السابق: ص ١٤٧.

من صنع القدر[1].. وسوف نرى فيما بعد كيف أثَّرت هذه الأطوار المختلفة فى تكوين ابن حزم باعتباره مؤرخا للأديان..

٥ - شيوخه:

كان أول سماع ابن حزم من أبى عمر أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربعمائة[2]، وكان شيخه فى المنطق محمد بن الحسن المذحجى المعروف بابن الكتانى، وكان أديبا شاعرا طبيبًا له فى الطب رسائل، وكتب فى الأدب، ومات بعد الأربعمائة[3]، وابن حزم يدعوه بأستاذه حين يعرض فى رسالته فى فضل علماء الأندلس لذكر كتبه فى الطب ويصفها بأنها «كتب رفيعة حسان» أو رسائله الفلسفية ويصفها بأنها «مشهورة متداولة، وتامة الحسن، فائقة الجودة، عظيمة المنفعة[4]» وقد صحب ابن حزم حين شب عن الطوق أبا على الحسين الفاسى الذى كان قدوة طيبة فى خلقه ودينه، ويقول عنه ابن حزم: «أحسبه كان حصورا لأنه لم تكن له امرأة قط، وما رأيت مثله جملة علما وعملا، ودنيا وورعا»[5].

ويذكر صاحب معجم الأدباء أن ابن حزم ابتدأ دراسة الفقه على الشيخ الفقيه أبى محمد ابن دحون الذى كان عليه مدار الفتيا فى قرطبة[6].

كما تلقى أيضا الفقه والحديث على عبد الله الأزدى المعروف بابن الفرضى، وهذا الشيخ «لم ير مثله بقرطبة فى سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال والافتنان فى العلوم، إلى الأدب البارع، والفصاحة المطبوعة، قَلَّ ما كان يلحن فى جميع كلامه من غير حوشية، مع حضور الشاهد والمثل، فيما يقول ابن حيان عنه[7]».

---

(١) عبد الحليم عويس: ابن حزم مؤرخا ص ٥٠.

(٢) الحميدى: جذوة المقتبس ص ١٠٧ (الدار المصرية للتأليف والترجمة).

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ١٣.

(٤) فضل الأندلس لابن حزم ص ٣٦٥، ٣٦٦.

(٥) طوق الحمامة ص ١٦٦.

(٦) معجم الأدباء لياقوت ١٢/ ٢٤٢ ط دار المأمون، وانظر ابن حزم فى الطوق ص ١٥٩.

(٧) ابن بشكوال: الصلة ١/ ٢٥٣.

وكان من شـيوخ ابن حزم أبو محمد الرهونى، عبد الله بن يوسف بن نامى، الذى «كان رجلا صالحا خيرا فاضلا، لا يقف بباب أحد مجودًا للقرآن، قديم الطلب، حسن الخلق، جيد العقل، خاشـعا، كثير البكاء، متحريا فيما يسـمع متحفظا به، ورعا فى دينه»[1] وذكر من شـيوخه مسعود بن سليمان بن مفلت أبو الخيار، وعنه - على ما يظهر - أخذ القول بالظاهر حتى صار فيه إماما متفردا، قال الضبى: «مسـعود.. فقيـه عالم زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر، ذكره أبو محمد بن حزم، وكان أحد شيوخه»[2].

كمـا يذكر لنـا ابن حزم فى كتابه «طوق الحمامة» أنه قـرأ معلقة طرفة بن العبد مشـروحة فى المسجد الجامع بقرطبة على أبى سـعيد الفتى الجعفرى[3] فعلمنا من هـذا الخبر أن حلقات الأدب كانت حافلة فى المسـجد بالأندلس لا يتحرجون فيها من رواية الشعر وشرحه ولا يتأثمون..

وقد درس الجدل والكلام على أستاذه أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى الذى ذكره ابن حزم بقوله: «وأذكر فى مثل هذا - إبَّان الاضطرابات السياسية - أنى كنـت مجتازا فى بعض الأيـام بقرطبة فى مقبرة باب عامر فـى لَمة من الطلاب... ونحن نريد مجلس الشـيخ أبى القاسـم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى بالرصافة أستاذى ﷺ»[4].

ولـه غير هؤلاء شـيخ كثيرون، فقد أجمع المترجمون له على أنه سـمع سـماعا كثيرا وذكر هو نفسه أنه طلب الحديث على سائر شيوخ المحدثين بقرطبة، ووصفوه بالإكثار من علوم الشريعة والأدب، وقرطبة إذ ذاك تغص بالفحول من العلماء...[5].

(١) طه الحاجرى: ابن حزم ص ٧١ - ٧٢.
(٢) بغية الملتمس: ص ٤٦٧.
(٣) طوق الحمامة: ص ١٠٠.
(٤) المرجع السابق: ص ١٠٢.
(٥) د. طه الحاجرى: ابن حزم صورة أندلسية ص ٣٦.

٦ - تلاميذه:

١ – من أشهر تلاميذ ابن حزم محمد بن أبى نصر فتوح الأزدى الحميدى الأندلسى الميورقى (ت ٤٨٨ هـ) صاحب كتاب «جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس». يقول ابن خلكان «الحميدى روى عن أبى محمد على بن حزم الظاهرى واختص به، وأكثر من الأخذ عنه، وشهر بصحبته[١] «ويعترف الحميدى لأستاذه بالفضل فى نهاية تعريفه بتاريخ الأندلس الذى بلغ ستا وثلاثين صفحة من كتاب جذوة المقتبس فيقول: «هذا آخر ما استفدنا أكثره من شيخنا أبى محمد على بن أحمد رحمه الله[٢]».

٢ – وكان من أخص تلاميذ ابن حزم – أيضا – القاضى أبو القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وكتابه «طبقات الأمم» يشهد فى منهجه ومادته بأنه متأثر تأثرا كبيرا بابن حزم[٣].

٣ – ومن تلاميذ ابن حزم: أبو محمد: عبد الله بن محمد بن العربى الذى حكى تلمذته لابن حزم فى هذه العبارة التى يوردها ياقوت عن أبى بكر، محمد بن طرخان قال: «وقال لى الوزير الإمام أبو محمد بن العربى: صحبت الشيخ الإمام أبا محمد على بن حزم سبعة أعوام، وسمعت منه جميع مصنفاته، حاشا المجلد الأخير من كتاب الفصل، وهو يشتمل على ستة مجلدات من الأصل الذى قرأنا منه، فيكون الفائت نحو السدس، وقرأنا من كتاب الإيصال أربعة مجلدات.. ولم يفتنى من تأليفاته شىء سوى ما ذكرته من الناقص، وما لم أقرأه من كتاب الإيصال، وكان عند الإمام أبى محمد بن حزم كتاب الإيصال فى أربعة وعشرين مجلدا، بخط يده، وكان فى غاية الإدماج...[٤]».

---

(١) وفيات الأعيان: ترجمة الحميدى.

(٢) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٣٦.

(٣) عبد الحليم عويس ص ١٨٤.

(٤) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٤٢ – ٢٤٣

٤ - كما نشـر علمه بالمشـرق ولده أبو رافع، وروى عنه ابناه: أبو أسامة يعقوب، وأبو سليمان المصعب[١]. هؤلاء أبرز تلاميذ ابن حزم تتلمذوا عليه وتأثروا به، ولسنا فى مجال الإحاطة والحصر فما أكثر الذين نهلوا من علمه، وتتلمذوا عليه أو على كتبه إلى يوم الناس هذا..

٧ - علمه:

اشـتهر ابن حزم بعلمه الغزير، وثقافته الواسـعة، ولـم ينكر تلك المنزلة أحد من معاصريه، سـواء أكانوا مؤيدين له أم كانوا مناوئين.. فهو بحق موسـوعة علمية أحاطـت بأكثر المعارف التى كانت فى عصره فـى تمكن وإحاطة، تدهش الألباب، وتطلق ألسـنة العلماء بالمدح والثناء: يقول الإمام الذهبى[٢] «وكان إليه المنتهى فى الذكاء والحفظ وسعة الدائرة فى العلوم» وقد شهد له الغزالى بأن كتابه (فى أسماء الله الحسنى) يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه[٣]. وكان - على حد قول صاعد - أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسـلام، وأوسـعهم معرفة مع توسـعة فى علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشـعر ومعرفة بالسـنن والآثار[٤]» ويقول عنه الحميدى: «كان أبو محمد حافظا للحديث وفقهه مسـتنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا فى علوم جمةٍ، عاملا بعلمه[٥]» لقد كان - ﷺ - «لا يدع المثابرة على العلم والمواظبة علـى التأليـف، والإكثار من التصنيف حتـى كمل من مصنفاته فى فنـون من العلم وقـر بعيـر[٦]» ولذلك يخبر ابنه الفضل المكنى أبا رافـع: أن مبلغ تواليفه فى الفقه والحديـث والأصول، والنِّحَل والمِلَل، وغير ذلك من التاريخ والنسـب وكتب الأدب

(١) عبد السلام هارون: مقدمة كتاب جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٧ (دار المعارف).
(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١١٤٦.
(٣) المرجع السابق ٣/ ١١٤٧.
(٤) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤١٦.
(٥) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٣٠٨ وراجع أيضا بغية الملتمس للضبى ص ٤١٥.
(٦) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٤٩.

والرد على المعارض نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان فى دولة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا..[1] والحق أن الإمام ابن حزم حقيق بهذا الثَّناء المستطاب، إذ إننا لا نجد بابا من أبواب العلم إلاّ ضرب فيه بسهم وافر، وتحدث فيه حديث الفاهم الواعى، ويكفى للمنصف أن يقرأ كتابه العظيم «الفصل فى المِلَل والأَهْواء والنِّحَل» ليعرف كيف أفاض الله على هذا الرجل من عمله، وأمده بالكثير من آلائه وفضله، وإننا لنرجئ الحديث عن ثقافة هذا الشيخ فى كتابه هذا إلى مكانها الآتى من البحث، آملين أن تكشف دراستنا للكتاب عما كان عليه صاحبه من إحاطة علمية شاملة شهد له بها الأعداء والأصدقاء على السواء..

٨ - وظائفه فى الدولة:

كان ابن حزم وفيا للبيت الأموى.. يعمل على انبعاث الدولة الأموية ويرى أحقيتها فى الخلافة دون غيرها من الناس.. وقد كان ذهابه للمرية تعبيرا عن هذه الرغبة، إذ كان «خيران العامرى» يظهر ميلا لبنى أمية فى أول أمره[2].

بيد أن العيش لم يطب له فى تلك المدينة - المرية - إذ اتهمه «خيران» واليها من قِبَل الحموديين سنة ٤٠٧ هـ بالعمل للبيت الأموى لإعادة السلطان إليه.

ويقول ابن حزم فى هذا الصدد.. «وظهرت دولة الطالبية وبويع على بن حمود الحسنى، المسمى بالناصر بالخلافة، وتغلب على قرطبة وتملكها، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس.. وفى أثر ذلك نكبنى خيران، إذ نقل إليه من لم يتق الله - عَجَلَ - وقد انتقم الله منهم - عنِّى وعن محمد بن إسحاق صاحبى، أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية، فاعتقلنا عند نفسه شهرا، ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر[3]، ولقينا صاحبه أبو القاسم

(١) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤١٦.

(٢) راجع عبد الحليم عويس: ابن حزم مؤرخا ص ٥٣.

(٣) حصن القصر: قرية صغيرة، ما تزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة أشبيليه (الطاهر مكى=

عبد الله بن محمد بن هذيل التَّجِيبى، المعروف بابن المقفل. فأقمنا عنده شهورا فى خير دار إقامة، وبين خير أهل وجيران، وعند أجلِّ الناس همة، وأكملهم معروفا، وأتمهم سيادة، ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد، وساكناه بها[1]» ولسنا فى مجال تحقيق هذه التهمة التى نسبت إلى ابن حزم وأودت به إلى السجن، والتى يظهر لنا من أسلوب صاحبها - الذى لم ينفها عن نفسه - أن لها نصيبا من الواقع.. وإنما الذى يعنينا فى هذا المقام أن ابن حزم بعد هذا التغريب والنفى الذى لاقى فيه من إخوانه العون والإكرام - ذهب إلى بلنسية عندما علم بظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد الأموى الذى لقب بالمرتضى وأخذ يدعو لنفسه فى بلنسية وقد كان المرتضى هذا أصلح من بقى من بنى أمية، ويبدو أن ابن حزم كان يأمل أن تنبعث الدولة الأموية على يديه وتظلل بلاد الأندلس من جديد لذلك أخذ يعاونه حتى صار وزيرا من وزرائه[2]. بيد أن أمره لم يبق طويلا فاغتيل المرتضى وانتهى أمره، ووقع ابن حزم فى أيدى أعدائه سنة ٤٠٣هـ بعد وفاة أبيه بعام[3]. ثم تولى ابن حزم لعبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار الذى بايعه أهل قرطبة بالخلافة فى رمضان سنة ٤١٤هـ ولقبوه بالمستظهر[4]، وكان عمره حين ذاك اثنتين وعشرين سنة، وكان رحب الصدر رقيق الطبع شاعرا ناثرا خطيبا بليغا، ولم تدم وزارته تلك أكثر من سبعة وأربعين يوما، إذ ثار على المستظهر ابن عمه المستكفى فى طائفة من أراذل العوام، فقتله لثلاث بقين من ذى القعدة من السنة نفسها[5].

=هامش الطوق).

(١) ابن حزم: طوق الحمامة ص ١٥٥.

(٢) هذا رأى بعض الباحثين أمثال الأستاذ سعيد الأفغانى وصاحب دائرة المعارف الإسلامية (مادة ابن حزم) الذين يرون أنه كان وزيرا للمرتضى ولكن الدكتور عبد الحليم عويس فى رسالته عن ابن حزم مؤرخا يرى أنه كان مستشارا كبيرا فحسب ولم يبلغ إلى مرتبة الوزارة (راجع عبد الحليم عويس ص ٥٤).

(٣) سعيد الأفغانى: ابن حزم ورسالته فى المفاضلة ص ٢٥، وانظر أيضا أبا زهرة ص ٤١.

(٤) المقرى: نفح الطيب ص ١/ ٢٠٤.

(٥) انظر عبد الحليم عويس ص ٥٤.

وبعد ذلك بسنوات عاد ابن حزم للوزارة أيام هشام بن المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذى تولى الخلافة بين سنتى ٤١٨ هـ، ٤٢٢ هـ[١].

وقد كان هذا آخر عهده بالسياسة والوزارة، لقد طلق المناصب إلى غير رجعة. وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن[٢].

ويبدو أن انحراف الحكام وتكالبهم على الدنيا جعل ابن حزم يزهد فى السياسة والاشتغال بها، لذلك نراه بعد أن يذكر فى كتابه «نقط العروس» من تسمى باسم مضاف إلى الدولة مثل فخر الدولة، وعماد الدولة، وعضد الدولة، يقول: «... ثم انحرف الأمر واتسع، ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب، حتى تسمى هذه الأسماء السماسرة ورذالات الناس ليُرى الله ﷻ عباده هوان ما تنافسوا عليه، وغالوا به، وصح[٣] قول رسول الله - ﷺ - حقيق على الله أن لا يرفع الناس شيئا إلا وضعه الله أو كلاما هذا معناه.. واستبان أن الحقيقة هى العمل لله ﷻ والعدل فى البلاد، والعمل بمكارم الأخلاق وحمل الناس على الكتاب والسنة، فذلك الذى لا يقدر عليه سخيف ولا يطيقه ضعيف، وبهذا يتبين فضل القوى على الساقط المهين، لا بأسماء يقدر على التسمى بها كل خسيس واهن، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولقد كانت دولة عبد الملك وسليمان والوليد وعمر وهشام لا عضد لها وعماد ولا لقب إلا أسماؤهم وكانت قد طبقت الدنيا طاعة واستقامة، والدولة الآن أكثر ما كانت أعضادا وعمدا، وقد طبقت الدنيا ضعفا ومهانة، والله المستعان[٤].

٩- رحلاته:

تعددت رحلات ابن حزم إلى المدن المختلفة من بلاد الأندلس.. وكان أكثر هذه الرحلات يصاحبها القلق والاضطراب، إذ كان مضطرا فى كثير من تلك الأسفار ولَمْ

(١) الأفغانى: ابن حزم ص ٢٥

(٢)ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٣٧.

(٣) روى البخارى فى صحيحه (٤/ ٣٨) عن أنس رضى الله عنه قال: (كان للنبى ﷺ ناقة تسمى العضباء لا تسبق، فجاء أعرابى على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه، فقال: حق على الله أن لا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه).

(٤) ابن حزم: نقط العروس: ص ٨٦ تحقيق الدكتور شوقى ضيف.

يكـن مختارا، وإن كان لدينا من الآثار التى تركهـا لنا أبو محمد ما يدل على رغبة كانت تجيش فى نفسـه لزيارة المشـرق، حيث كانت بغداد قبلـة العلوم، وأمنية المتمنى من المفكرين والعلماء لينهلوا من علمها، ويجلسـوا إلى شـيوخها، ولذلك نرى ابن حزم يصور هذه المشاعر - التى شاءت إرادة الله أن لا تتحقق - بقوله:

ولـى نـحـو أكـنـاف الـعـراق صـبـابـة ... ولا غـرو أن يستوحش الكلـف الـصب
فـإن يـنـزل الـرحـمـن رحـلـى بينهم ... فـحـيـنـئـذ يـبـدو الـتـأسـف والـكرب
هـنـالـك يـدرى أنَّ لـلـبـعـد غـصـة ... وأن كـسـاد الـعـلـم آفـتـه الـقـرب[1]

ومن المدن الأندلسية التى رحل إليها - ابن حزم - وكان لها أثر بالغ فى حياته الفكرية كما سـنوضح فى خاتمة هذا الفصـل - مدينة المرية التى ذهب إليها عندما وقع انتهاب جند البربر لمنازل ابن حزم فى الجانب الغربى بقرطبة وسكنى مدينة المرية[2].

بيد أن المقام لم يطب له فيها، إذ كان اتجاه ابن حزم السياسى - موالاة الأمويين - يثيـر له المتاعب ويخلـق حوله جوا من الريبة يحـول دون راحة باله ويحجب عنه كل هدوء، ومن ثم لم ينعم بالاستقرار فى المرية إلا ثلاث سنوات اعتقل بعدها عنـد «خيران» - حاكم المدينة - بضعة أشـهر[3].. هاجر بعدها إلى حصن القصر[4] فى الجانب الغربى من الأندلس حيث أقام عند صاحبه أبو القاسـم بن هذيل شـهورا هادئة مستقرة.. ومن خلال كتب ابن حزم يتبين لنا أنه سافر بعد ذلك إلى بلنسية[5] لأغراض سياسية، ثم فى نهاية هذا الشوط الأول عاد إلى قرطبة.

(١) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٣١٠. راجع معجم الأدباء ١٢/ ٢٥٥.
(٢) طوق الحمامة ص ١٥٥.
(٣) المرجع السابق ص ١٥٦.
(٤) حصن القصر: قرية صغيرة، ما تزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة أشبيليه (هامش الطوق ص ١٥٦).
(٥) بلنسـية: مدينة، ومحافظة كبيرة فى شـرقى أسبانيا، على شاطئ البحر المتوسط (دكتور الطاهر مكى هامش الطوق ص ١٥٦).

وقد كان شعور ابن حزم فى هذه الرحلات أنه المطارد المبعد عن الأهل والوطن ظلما وعدوانا، ولذلك نجده يقول فى كتابه «طوق الحمامة»:

أنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مضطرب بما نحن فيه من نبو الديار والجلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الأخوان، وفساد الأحوال وتبدل الأيام، وذهاب الوفر والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة فى البلاد، وذهاب المال والجاه، والفكر فى صيانة الأهل والولد. واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا، وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ، والذى ترك أعظم مما تحيف، ومواهبه المحيطة بنا، ونعمه التى غمرتنا لا تحد ولا يؤدى شكرها، والكل منحه وعطاياه، ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه وإليه متقلبنا، وكل عارية راجعة إلى معيرها، وله الحمد، أولا وآخرا، وعودا وبدءا»[1].

أما البلاد التى رحل إليها فى النصف الأخير من حياته بعد أن ترك الوزارة وتفرغ للعلم فقد كانت بسبب حدته فى الرأى - أو بتعبير ابن حيان - عدم معرفته بسياسة العلم، إذ كان يصك معارضه صك الجندل حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فمالوا إلى بغضه ورد أقواله فأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته... وطفق الملوكُ يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم[2].. «فذهب أول أمره إلى شاطبة، ثم انتقل إلى القيروان بالمغرب حيث كان يناقش علماءها، ويتبادل معهم وجهات النظر المختلفة، ويخبرنا ابن حزم عن ذلك فيقول: «ولقد سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب من أهل القيروان أيام كونى بالمرية، وكان طويل اللسان جدا مثقفا للسؤال فى كل فن[3]» وقد رحل - أيضا - إلى ميورقة التى كانت تخضع لولاية أحمد بن رشيق، ويصفه المؤرخون بأنه كان يميل إلى الحديث

(١) طوق الحمامة ص ١٩٧.

(٢) ابن بسام الذخيرة المجلد الأول القسم الأول ص ١٤١.

(٣) طوق الحمامة ص ٧٣.

والفقـه[1]. وذو هيبـة مفرطة وتواضع وحلـم عرف به مع القـدرة[2].. وفى ميورقة حدثـت مناظرات بينه وبين أبى الوليد الباجى الذى ارتحل إلى المشـرق وتعلم فيه علم الكلام والجدل والفقه والحديث وغيره ثم عاد إلى الأندلس فوجد «لكلام ابن حزم طلاوة إلا إنه كان خارجا عن المذهب ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه، فقصرت ألسـنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل (!!) وحل بجزيـرة ميورقة فرأس فيها واتبعه أهلها، فلما قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك فدخل إليه وناظره، وشـهر باطله، وله معه مجالس كثيرة[3]» وقد اسـتطاع الباجى إجلاء أبى محمد عن ميورقة بعد أن استعان عليه بأميرها الذى تولى بعد ابن رشيق، وحرض عليه الجماهير.. ولم تذكر كتب التاريخ ولا كتب التراجم إلى أين غادرها، وإن كان بعـض الباحثيـن[4] يرى أنه ذهب إلى إشـبيليه حتى اسـتقر به المقام فى نهاية المطاف إلى قريته، التى كانت ملكه وملك سلفه من قبل.. وهناك أمضى بقية حياته حتى لقى ربه.. أما عن أثر هذه الرحلات فى تكوين ابن حزم باعتباره مؤرخا للأديان فهذا ما سنذكره فى موضعه من تلك الدراسة بإذن الله.

١٠ - علاقة ابن حزم بمعاصريه:

إن الذى يطالع سـيرة الإمام ابن حزم يأسى للآلام والمحن التى واجهها من كثير مـن معاصريه، إذ عمـل الكثيرون من الفقهاء والحكام علـى حربه وتضليله، وقليل أولئك الذين أنصفوا الرجل وعرفوا له مكانته وعلمه، وهذه الثورة التى ظلت مشتعلة حتى لقى الشـيخ ربه.. والتى تولى كبرها بعض الفقهاء وأدعياء العلم مردها - فى نظرنا - للأسباب الآتية:

(أ) قسـوة ألفاظه، وجرأته على الأئمة، فقـد كان - ﷺ - يصك برأيه معارضه صك الجندل، ويرميه به رمية تشبه انشاق الخردل، حتى نفرت عنه القلوب، فمال

(١) ابن الآبار: الحلة السيراء ٢/ ١٢٨.
(٢) الحميدى: الجذوة ١٢٣ وانظر - أيضا - المرجع السابق.
(٣) المقرى: نفح الطيب ١/ ٣٥٤.
(٤) عبد الحليم عويس: ابن حزم ص ٥٧.

هؤلاء عليه يشنعون ويكفرون، ويحذرون السلاطين والعوام من آرائه حتى أقصوه عن قربهم، وسيروه عن بلادهم[1]».

(ب) عدم ممالأته للحكام، ورفضه لقبول هداياهم كغيره من الفقهاء استعلاء بعلمه وخلقه، واستنكارا لسلوكهم وانحرافهم، حيث رآهم يستعين بعضهم على بعض بالنصارى، ويأتون من الأعمال والأخلاق ما تأباه شرعة الإسلام، وقد أعطى الله ابن حزم خلقا قويا جعله ينطق بالحق ولا يجارى أحدا من الناس.. وقد سجل ابن حزم - وهو المؤرخ - مهازل الولاة فى عهده[2] - دون مجاملة - وشكى إلى الله - سبحانه - تخريبهم لدينهم وتعميرهم لدنياهم[3].. ولا شك أن هذا الموقف أوجد جفوة بينه وبين الحكام، وكان من أسباب عداوتهم الشديدة للشيخ - رحمه الله - مما جعلهم يعملون على تشويه سمعته ونفيه واضطهاده، والتضييق عليه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا..

(ج) تركه لمذهب مالك - ﷺ - وهو مذهب أهل الأندلس فى عصره، واعتناقه لمذهب الشافعى أولا ثم تركه إلى القول بالظاهر وعدم تقليد إمام من الأئمة، وقد كان ذلك سببا لعداوات وخصومة بينه وبين الناس لم تهدأ حتى بعد أن فارق الدنيا ووراه الثرى..

(د) موقفه من اليهود والنصارى دفاعا عن عقيدته، وكشفا لزيف الأديان الأخرى وبيان ما فى كتبها من ضلال وكذب، ليثبت أنها من صنع البشر، وأنها لا يمكن أن تكون من لدن حكيم عليم - وقد كان للجالية اليهودية فى عصره مكانة عند الساسة استطاعوا معها أن يصلوا إلى أرقى المناصب فى الدولة، ويكيدوا للمسلمين بتشويه أفكارهم والهجوم على مقدساتهم، ووضع العقبات أمام الداعين إلى الله وخلق التهم حولهم، ولا يخفى علينا حيل اليهود وأخلاقهم فى كل زمان ومكان..

(١) ياقوت: معجم الأدباء ١٢/ ٢٤٨ (بتصرف وتلخيص).
(٢) اقرأ مثلا مبحث (أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها) فى كتابه فقط العروس.
(٣) راجع خاتمة كتاب «الرد على ابن النغريلة اليهودى» لابن حزم.

وممن اشتهر بعدائه لأبى محمد بن حزم الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى الذى رحل إلى المشرق والتقى بالعلماء، ولبث فى رحلته ثلاثة عشر عاما ينتقل بين العـراق والحجـاز، فلما عاد من رحلته هذه وجد لكلام ابـن حزم طلاوة، وقد عجز الفقهاء مـن المالكية عن مجادلته وكلامه، فدخل إلـى ميورقه حيث ناصره العامة وأدعيـاء العلـم على ابن حزم حتى أخرجوه منها[1].. ورحـم الله ابن حزم لم تمنعه الخصومـة التى قامـت بينه وبين الباجى أن يوفيه حقه، بل قـال فيه: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكى بعد عبد الوهاب إلا مثل أبى الوليد الباجى لكفاهم[2]».

وممـن تحامل على الإمام ابن حزم ولم ينصفه الإمـام أبو بكر بن العربى صاحب كتـاب «العواصم مـن القواصم» لقد أكثر من هجومه عليـه، ووصفه بصفات وعبارات يترفـع عـن ذكرها آحاد العقلاء فضلا عـن الصفوة من العلمـاء[3].. وقد غضب الإمام الذهبى - ﷺ - لهذا التحامل والجور وعلق على عبارات أبى بكر بن العربى بقوله: «قلت: لم ينصف القاضى أبو بكر - رحمه الله - شـيخ والده فى العلم، ولا تكلم فيه بالقسط، وبالغ فى الاستخفاف به، وأبو بكر على عظمته فى العلم لا يبلغ رتبة أبى محمد ولا يكاد، فرحمهما الله وغفر لهما[4]».

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٥٤.

(٢) الموضع السابق.

(٣) راجع تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٩.

(٤) ذكرت الدكتورة سـهير فضل الله أبو وافية المدرسة بقسم الفلسفة بكلية البنات جامعة عين شمس فى رسالتها «ابن حزم وآراؤه الفلسفية والكلامية» ص ٩٧: أن أبا بكر بن العربى تراجع عن موقفه العدائى مـن ابن حزم، واعتنق مذهبه الظاهرى، وتقول: «وله رؤية قصها علينا فى فتوحاته المكية إذ قال «رأيت رسـول الله - ﷺ - فـى المنام، وقد عانق أبا محمد بن حزم فغاب الأول فـى الآخر فلم تر إلا واحدا وهو رسول الله- ﷺ - وهذه غاية الوصلة» - الفتوحات المكية ١/ ٥١٩ - وأقول هذا خطأ واضح، لأن هذه الرؤية لابن عربى الصوفى وكتابه «الفتوحات المكية» أشهر من الشمس وقد قام بتحقيقه الأستاذ عثمان أمين، وقد كان ابن عربى هذا من العجبين بأبى محمد بن حزم، المعتنقين لمذهبه فى الفروع، برغم قوله بالباطن فى العقائد والأصول، وقد كان فى القرن السابع فهو ليس معاصرا لابن حزم بخلاف أبى بكر بن العربى صاحب كتاب «العواصم من القواصم» الذى كان معاصرا لابن حزم وظل على عدائه للشيخ إلى أن لقى الله.

وقد كان لهذا الفريق أثر كبير فى كتابات ابن حزم وبخاصة كتاب الفصل فى المِلل والأهـواء والنِّحل وغيره من كتب الخلاف، ومهما يكن من أمرٍ فلم تكن هذه الجفوة التى وقعت بين ابن حزم وهذا الصنف من الفقهاء شـرا على الإطلاق بل كانت مبعثا لتراث ضخم، وأنشـطة علمية نضرت وجه التاريخ، وسـاهمت فى الدفاع عن عقيدة الإسلام وتراث المسلمين..

وبجانـب هذا النمـط من المتحاملين نرى طرازا آخر من الناس، أخذوا أنفسـهم بقول الحق فذكروا المحاسـن والهفوات، من هؤلاء أبو مروان بن حيان الذى قال عن ابن حزم - بعد أن ذكر هفواته - «.... إلى أن يحرك بالسؤال فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء[1]» ولذلك يعلق الإمام الذهبى - عقب روايته لكلام ابن حيان - بقوله: هـذا القائل منصف فأين كلامه من كلام أبى بكر بـن العربى، وهضمه لمعارف ابن حزم[2]».

وبعد أن أورد ابن حيان شعره - ابن حزم - فى نعى نفسه قال:

«ويا لبدائع هذا الحبر على غرره، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها، والطامسين لمحاسـنها، وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضيع منه، فأزهد الناس فى عالم أهله،.... والحسد داء لا دواء له[3]».

وقـد كان لصاحبنا أصدقاء تربطه بهم صلات الحب والمودة، وقد عرف ابن حزم بالإخلاص والوفاء، ولعل أشهر هؤلاء أبو عامر أحمد بن شهيد صاحب كتاب «التوابع والزوابع» وأحد مشاهير الإسلام فى الأدب والشعر، وقد تولى الوزارة مع صديقه ابن حزم للمستظهر، وعملا معا فى خدمة المعتد بالله..

وفـى المرض الذى مات فيه ابن شـهيد أرسـل إلى ابن حـزم قصيدة تفيض رقة وإخلاصا ونبلا جاء فيها:[4]

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥٢.

(٢) السابق.

(٣) معجم الأدباء ١٢/ ٢٥٤ والأفغانى: ابن حزم ورسالته فى المفاضلة ١٤٣ - ١٤٤.

(٤) راجع ترجمة ابن شهيد فى نفح الطيب ١/ ١٧٧.

كأنى وقد حان ارتحالى لم أفز ... قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى ... يدا فى ملماتى وعند مضايقى؟
عليك سلام الله إنى مفارق ... وحسبك زادا من حبيب مفارق[1]

* * *

١١ - صفاته وأخلاقه

جمع ابن حزم من كريم الشمائل، وجميل الصفات ما جعله الإنسان النبيل والعالم الذى فاضت بحوثه وتناقلت الأجيال كتبه.

١ - وأول هذه الصفات تلك الحافظة القوية التى سيطر بها على مقالات الآخرين، واستوعب أدلتهم وبراهينهم، واستطاع أن يحفظ سير الأولين ويربط علومه التى استحفظها ووعاها بعضها ببعض فى تناسق فكرى اختص به من بين معاصريه من العلماء والفقهاء[2].

٢ - كما عرف ابن حزم بتدينه وصلاحه، ولقد أحسن ابن بشكوال عندما أراد أن يجمع أخلاقه فى كلمة واحدة فقال «... كان عاملا بعلمه»[3] لقد كان ﷺ متواضعا لله، شاكرا لأنعمه يقول فى أدب العالم «وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمنحك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت، ولقد أخبرنى عبد الملك ابن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم، لا يكاد يمر على سمعه شىء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر مرة، فمر به هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ وأخل بقوة حفظه إخلالا شديدا لم يعاوده ذلك الذكاء بعد، وأنا أصابتنى علة فأفقت منها، وقد ذهب ما كنت أحفظ

(١) ديوان ابن شهيد بتحقيق يعقوب زكى ص ٢٣٤ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة) بدون تاريخ.

(٢) راجع الأستاذ محمد أبو زهرة: ابن حزم ص ٦٧.

(٣) الصلة ٢/ ٤١٦.

إلا مـالا قدر له فما عاودته إلا بعد أعوام، واعلـم أن كثيرا من أهل الحرص على العلم يُجِـدُّون فى القـراءة والإكباب على الدرس والطلب، ثم لا يرزقـون منه حظا، فليعلم ذو العلـم أنه لو كان بالإكباب وحده لكان غيره فوقـه فصح أنه موهبة من الله تعالى.. فأى مكان للعجب ها هنا. ما هذا إلا موضع تواضع، وشـكر لله تعالى، واسـتزادة من نعمة واستعاذة من سلبها..[1]».

٣ – ومن أبرز صفاته – ﷺ – صفة الوفاء الذى جعله يعيش وفيا لدينه ولإخوانه ولشـيوخه، ولكل من اتصل به، بل كان وفيا حتى للجماد فهو يسـأل الذاهبين إلى قرطبة عن دُورِه وما جرى لها، وقد كانت مغانيه وكان فيها أنس نفسه، وإنه ليقول فـى ذلك «لا أقـول قولى هذا ممتدحا، ولكن آخذ بـأدب الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سـورة الضحى: ١١) لقد منحنى الله – ﷻ – من الوفاء لكل من يمتّ إلَّى بلقية واحدة... ووهبنى من المحافظة لمن يتذمم منى ولو بمحادثة ساعة، وما شىء أثقل على من الغدر، ولعمرى ما سـمحت نفسـى قطّ فى الفكـرة فى إضرار من بينى وبينه أقل ذمام، وإن عظمت جريرته، وكثرت إلى ذنوبه، ولقد دهمنى من هذا غير قليل فما جزيت على السوءى إلا بالحسنى والحمد لله على ذلك كثيرا[2]».

٤ – أما عن عفته وطهره فحسبنا منها أنه عاش فى القصر بين الجوارى والحِسَان ولكنه مع ذلك لم يقرب معصية، ولم يباشـر فاحشة ويقول فى ذلك: «يعلم الله وكفى به عليما، أنى برىء الساحة سليم الإدام، صحيح البشرة، نقى الحجزة، وأنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قطّ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا[3]».

٥ – وما قيل عن حدة ابن حزم، وشدته فى الرد على الخصوم، يمكن أن نجد عذره فى ذلك ما قاله هو عن علة الطحال التى أصيب بها، وأنها كانت سبب ضجره وضيق

(١) مداواة النفوس.
(٢) طوق الحمامة ١١٢ – ١١٣.
(٣) المرجع السابق ص ١٦٥.

خلقــه وقلة صبره ونزقه[1].. فضلا عن الجفوة التــى لاقاها من الكثيرين فى عصره، والكيد الذى بلغ إلى إحراق كتبه، وإن كنا نود لو ارتفع عليها وســما فوقها، بيد أن الكمال لله وحده، ولله الأمر من قبل ومن بعد..

١٢ - وفاته:

توفى الإمام ابن حزم - كما يذكر ابن خلكان - فى آخر نهار الأحد لليلتين بقيتا من شــعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة (٤٥٦ هـ) فى بادية «لبله» وقيل إنه توفى فى «منت ليشم» وهى قرية ابن حزم رحمه الله[2].. فكان عمره إحدى وسبعين وعشرة أشهر وتسعة وعشرين يوما[3]..

وروى أبو بكر محمد بن طرخان التركى قول الإمام أبى محمد عبد الله بن العربى أن ابن حزم توفى بقريته - وهى على خليج البحر الأعظم - فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين[4].

وهذه الرواية التى تنص على أنه توفى ســنة سبع وخمسين تخالف ما عرف بين المؤرخين من أن ابن حزم توفى يوم ٢٨ من شــعبان عام ٤٥٦ هـ، ولذلك نجد الإمام ابن كثير يجعل وفاة أبى محمد من حوادث سنة ست وخمسين وأربعمائة[5].

ونص ابن العماد على أن ابن حزم توفى ليومين بقيا من شعبان سنة ست وخمسين وأربعمائة من اثنتين وسبعين سنة[6].

وهذا هو التاريخ الذى أجمع عليه غالبية المترجمين فقالوا إن ابن حزم توفى يوم ٢٨ من شعبان عام ٤٥٦ هـ الموافق ١٠٦٤م.

---

(١) مداواة النفوس.
(٢) وفيات الأعيان ٣/ ١٣.
(٣) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٣٩٦.
(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥٤ (ط حيدر أباد - الدكن).
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٩١.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ٢٩٩.

وكأنما كان – رحمه الله – ينعى نفسه حين قال:

كـأنـك بـالـزوار لـى قـد تـبـادروا ... وقـيـل لـهـم: أَوْدَى علـىٌّ بـن أحـمـد
فـيـارب مـحـزونٍ هـنـاك وضـاحـكٍ ... وكـم أدمـع تُـذْرَى وخَـدٍّ مُـخَـدَّدِ
عـفـا الله عـنـى يـوم أرحـل ظـاعـنًـا ... عـن الأهـل محمولا إلى ضـيـق مَـلْحَـد
فَـوَارا حَـتِـى إن كـان زادى مـقـدمـا ... ويـا نـصـبـى إن كـنـت لـم أتـزوَّدِ[1]

وبوفاته شعر الناس بإخلاصه وجهاده وعلمه، وقد ضيقوا عليه فى حياته، فعاش طوافـا فى البلاد لا يسـتقر به مُقام ولا يهنأ له عيش، ولقـد أراد الله أن ينصف هذا العالم بعد موته، وقد عاش غريبا بعلمه وخلقه فى حياته، فوقف المنصور الموحدى ثالث خلفاء الموحدين على قبره خاشعا وهو يشهد شهادة التاريخ:

«كل الناس عيال على ابن حزم».

١٣ - أثر حياة ابن حزم فى كتابه الفصل:

نشأ ابن حزم نشأة فيها سعة ونعيم وافر – كما أسلفنا القول – ولا ريب أن المال خادم للعلم وعون على تحصيله، كما أن استقرار المرء وراحة نفسه بما منحه الله من آلاء ونعم من أكبر العوامل على ترتيب الذهن وكثرة الإنتاج، وقد كان صاحب كتاب «الفصل» وزيرا، تربّى فى بيت الوزارة، وتلك حالة تمكنه من تحصيل الكتب وتهيئ له كثيرا من أسـباب العلم والإجادة فيه.. كمـا أن المحن والصعاب التى مر بها ابن حزم بعد الراحة والنعيم قد يكون لها أثر فى تغير لهجته وقسـوة عباراته.. ونحن لا نسـتبعد أن تلك الفتن التى أصابت بلاد الأندلس وعمّت الناس وخصت صاحبنا – كما يقول – كانت سببا فيما تحدث عنه من مرض شديد، وألم فى الطحال، ولد فيه ضجرا وضيقا، وقلـةَ صبر.. خصوصا وأن الطب الحديث أثبت أن كثيرا من الأمراض الباطنية وغيرها مردها للأزمات الاجتماعية، والمتاعب النفسـية التى يعانى منها الإنسان..! ولا ريب أن كتاب الفصل كتب فى هذه المرحلة من حياته بعد أن أصيب بهذا الداء بخلاف الكتب التى ألفها فى المراحل الأولى من حياته..

(١) معجم الأدباء ١٢/ ٢٥٣ – ٢٥٤.

أما عن شـيوخ ابن حزم فقد كان لبعضهم أثر فى صقل فكره، والعون على تحديد وجهته، خصوصا وأن الصلة التى كانت تربط الأسـتاذ بمريديه من الطلاب كانت من القـوة والقرب - غالبـا - بحيث تترك بصماتها على تفكيرهـم واتجاهاتهم.. ولقد ذكر «الضبى» أن مسـعود بن سـليمان بـن مفلت أبو الخيـار كان يميل إلى الاختيار والقـول بالظاهـر[1]، فهل اقتبس ابـن حزم منهجه الظاهرى من أسـتاذه هذا؟؟ إن العقل لا يستبعد أن يكون زهد الشيخ وما عليه من علم وخلق من العوامل التى أنارت الطريق أمام صاحبنا ليسلك هذا المنهج الذى كان له أثر بالغ فى كتابه «الفَصْل» وفى سـائر كتبه.. كما أن قدرة ابن حزم فى الجدل والتى ظهرت آثارها فى كتابنا هذا، أخذ شـيئا منها عن أسـتاذه أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى الذى ذكر المؤرخون[2] أن ابن حزم درس عليه الجدل والكلام..

ونعتقد أن الثقافة الواسعة للإمام انعكست على كتابه الفصل، إذ إن هذه الموسوعة التى حوت أديان العالم ونِحَلِه، ما كانت لتظهر - فى هذا الثوب القشيب - لولا تلك الثقافة التى تميز بها ابن حزم..

أما عن رحلات ابن حزم فقد كانت للفترة التى قضاها الرجل فى (المرّية) أهمية كبيـرة على حياتـه العلمية باعتباره إمامـا من أئمة المِلَل والنِّحـل.. إذ كانت تلك المدينـة تموج بتيارات فكرية متعددة.. ونحن نقـرأ فى كتاب «الطوق» عن الطبيب اليهودى الذى يدعى إسـماعيل بن يونس وكان ابن حزم يجلس فى دكانه فى لَمةٍ من الأصحاب[3].

ويبـدو أنه كانت بينهما مناقشـات وجهـت نظر ابن حزم إلى دراسـة الأديان والنحل، حتى أصبح فيها حجة ومرجعا.. والذى يقرأ الدراسـة التى قدمها لنا ابن حـزم فى كتابـه «الفَصْل» وناقش فيها كتب اليهود تتضح له تلك الثقافة الواسـعة،

(١) بغية الملتمس ٤٦٧.

(٢) راجع طوق الحمامة ١٠٢.

(٣) ابن حزم: طوق الحمامة ٣٥.

والإحاطة الدقيقة بكتب هؤلاء القوم، ولعل الأصل فى هذا يرجع إلى مجلسه فى دكان إسماعيل بن يونس هذا، وكان ما تزال تعرض فيه هذه المسألة أو تلك من مسائل الدين اليهودى، فتثور حولها المناقشة ويحتدم الجدل، فيدعوه ذلك إلى البحث، وإدمان المراجعة والدرس حتى أصبحت هذه الناحية من نواحى علمه من أشد ما يلفت النظر ويدعو إلى التعجب، وحتى أصبحت مجالسه مع اليهود موضع تنويه العلماء[1].

وإن إتقانه لهذه الناحية ظاهر فى هذه العبارات الساخرة التى كتب بها إليه ابن عمه أبو المغيرة حين نشبت الخصومة بينهما: «ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك، التى صرت رئيس مدارسهم، وكبير أحراسهم، تحدثهم عمّا كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر، فتارة عن السامرىّ والعجل، وتارة عن القمل والنمل، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك[2]».

وفى هذه المدينة - أيضا - جادل الكاتب اليهودى المعروف إسماعيل بن النغريلة سنة أربع وأربعمائة كما جاء فى كتاب الفصل[3]. وتعيين هذه السنة يُبين لنا أن هذه المناظرة كانت فى المرّية.. وإسماعيل بن النغريلة هذا أحد الشخصيات اليهودية الكبيرة فى الأندلس الذى أتيح له بعد أن يكون صاحب السلطان المطلق فى غرناطة بغلبته على أميرها باديس بن حبوس، وكان صاحب مطامح سياسية كبيرة حتى «طلب أن يقيم لليهود دولة» - كما يقول ابن عذارى - مما انتهى بقتله سنة تسع وخمسين وأربعمائه[4].

ومما ذكره ابن بسام أنه «ألف كتابا فى الرد على الفقيه أبى محمد بن حزم، وجاهر بالكلام فى الطعن على ملة الإسلام[5]» ومن ذلك نتبين أى رجل كان ابن النغريلة

(١) انظر معجم الأدباء ١٢/ ٢٥١ وانظر - أيضا - طه الحاجرى: ابن حزم ٨٨ - ٨٩.
(٢) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ١٣٧.
(٣) الفصل ١/ ١٥٢.
(٤) البيان المغرب ٣/ ٢٦٦.
(٥) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثانى ٢٦٩.

هذا فى الاعتداد بدينه، والمجاهرة برأيه مع علم واسع وقوة فى الجدل، كما يصفه ابن حزم بأنه أعلمهم وأجدلهم[1]. ولعل صلته به سنة ٤٠٤ هـ كانت وهو شاب فى نحو سن صاحبنا ابن حزم إذ ذاك، ولكنه كان شابا نشأ على الثقافة اليهودية وعلى التعصب لها، وكانت منزلة أبيه يوسف عند حبوس صاحب غرناطة، وما أتيح له بهذه المنزلة من أن يعلى من شأن اليهود، حتى يستطيلوا على المسلمين مما جعله حريصا على إبراز مقومات هذه اليهودية، وتحصيل التراث الإسرائيلى والمباهاة به، والمناظرة فيه[2].

فلا ريب أن صلته بابن حزم فى ذلك الوقت واجتماعه فى مجالس المناظرة كان من الحوافز القوية التى حفزت صاحبنا على تحصيل تلك الألوان المختلفة من المعارف اليهودية، مع مقارنتها وتعمقها، حتى بلغ منها ذلك المبلغ، فهذه ناحية من النواحى التى أتيحت لابن حزم فى المرية، وبدأ بها يمارس الجدل والمناظرة ممارسة جدية[3].

هذا عن رحلاته وأهميتها لموضوع بحثنا، ولقد عمل ابن حزم واشتغل بالسياسة وضرب فيها بسهم وافر حتى وصل فيها إلى مرتبة الوزارة، وإنها لوظيفة لها من جلال المكانة وكبير الهيبة فى نفوس كثير من الناس ما مكّن لصاحبنا من تلك الصلة بين طوائف الشعب المختلفة فيتعرف على عقائدهم، ويدرس عن قرب فكرهم..

كما أن الجفوة التى كانت بينه وبين بعض فقهاء عصره، وتحاملهم عليه، وانتقاصهم له أثار كوامنّ الدّفاع فى نفسه، فجاء كتاب الفَصْل وغيره من كتب العقائد والخلاف، وهو يتحدث عن ذلك فيقول: «ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة وهى أنه قد توقد طبعى واحتدم خاطرى وحمى فكرى وتهيج نشاطى فكان ذلك سببا إلى تواليف عظيمة النفع، ولولا استثارتهم ساكنى، واقتداحهم كامنى ما انبعثت لتلك التواليف[4]».

---

(١) راجع الفصل ١/ ١٥٢.

(٢) طه الحاجرى: ابن حزم ٩٠.

(٣) المرجع السابق ٩١.

(٤) ابن حزم: مداواة النفوس ٣٠.

فـإذا انتقلنا إلى صفات الإمام – رحمه الله – فـإن أثر تلك الصفات يبدو جليا فى كتابنا هـذا، لقد عرف – ﷺ – بالتدين والإخلاص، ولا ريب أن «إخلاص ابن حزم كان سـببا فى الصفة التى اشتهر بها، وهى الصراحة فى الحق، ينطق بقول الحق لا يهمه رضى الناس أم سخطوا، ويستوى عنده الإيذاء والثناء، مادام الحق يدفعه إلى أن يقـول ما قال. ويوجب عليه أن ينطق غير محجـم ولا مجمجم حتى لقد قال عنه معاصروه[1] إنه عرف العلم ولم يعرف سياسة العلم، وقد أجمع الذين أرخوا له على أنه كان شديدا فى قوله صريحا فى وصف الذين يجادلونه وآرائهم.. أفهذه الصراحة العنيفـة التى كان يصك بها خصومه صك الجندل[2] كانت نتيجة لحدته التى اتصف بها، أم كانت لأن سياسته فى الحق أوجبت عليه أن يقول ما قال، وإن أضر ذلك به، وادّعى عليه أنه لم يعرف سياسة العلم[3]».

وبالجملـة: فإن حياة العلماء وما يواجهونـه من محن ومنح، تنعكس – غالبا – على تراثهم وما يكتبون.. وإن الكتب التى ألفها أصحابها وهم آمنون مطمئنون تأتى مغايرة لتـراث كان صاحبه يعانى ضيق الحياة، وألـم الاغتراب والأغلال!! كما أن الفكر الذى يصدر عن ثراء خلقى ومادى لا يتشـابه مع تراث يعانى صاحبه ضيقا فى الرزق أو أزمة فى الضمير.. وهكذا فإن الكتب تأتى صورة حية لنفوس أصحابها وما يحملـون من صفات ومواهب، وما يطرأ فى حياتهم مـن أمن أو خوف.. ومن قلق أو استقرار..

---

(١) هو أبو حيان المؤرخ.

(٢) العبارة مقتبسة من كلام أبى مروان بن حيان عن ابن حزم (راجع تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٥١).

(٣) أبو زهرة: ابن حزم ٧٣.